تراثنا

نشرة فصلية تصدرها

مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

ISSN 1016 - 4030

العدد الثاني [١٣٤]

السنة الرابعة والثلاثون / ربيع الآخرة - جمادى الآخرة ١٤٣٩ هـ

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

* الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحقّقين والباحثين والمعنيّين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام .
* الآراء المنشورة لا تعبِّر عن رأي النشرة بالضرورة .
* ترتيب المواضيع يخضع لأُمور فنّية وليس لأيّ أمر آخر .
* النشرة غير ملزمة بنشر كلّ ما يصل إليها أو بإعادته إلىٰ أصحابه .

المراسلات تعنون باسم : هيئة التحرير .
دورشهر ـ خيابان شهيد فاطمي ـ كوچه ٩ ـ پلاك ١ و ٣
هاتف : ٥ ـ ٣٧٧٣٠٠٠١ ـ فاكس : ٣٧٧٣٠٠٢٠ .
البريد الألكتروني : *e-mail : turathona@rafed.net*
ص . ب . ٩٩٦ / ٣٧١٥٦٥٣٧٧١ ـ قم ـ الجمهورية الإسلامية في إيران .
تراثنا .
العدد : الثالث [١٣٥] السنة الرابعة والثلاثون / رجب ـ رمضان ١٤٣٩ هـ .
الإعداد والنشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث .
الكمّيّة : ٢٠٠٠ نسخة .
الفلم والألواح الحسّاسة : تيزهوش ـ قم .
المطبعة : الوفاء ـ قم .
الاشتراك السنوي : ٢٠٠٠ تومان في إيران ، و ٢٥ دولاراً أمريكياً في بقيّة أنحاء العالم .

الخطاب الحجاجي في وصيّة الإمام الصادق عليه السلام إلىٰ أبي جعفر محمّد بن النعمان الأحول (التوجيه الحجاجي اختياراً)

د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة :

يعدّ خطاب الإمام الصادق عليه السلام مدوّنة تراثية فكرية ، فهو من أعرق النصوص الأدبية وأفصحها ، وهذا ديدن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ومنهم الإمام الصادق عليه السلام ، ومن ذلك الخطاب الثرّ وصيّته إلىٰ محمّد بن النعمان الأحول التي تشكّل مقاربة إصلاحية في الدين والدولة ، بنيت علىٰ أسس تبليغية علىٰ وفق مقدّمات خطابية تواصلية تحاور الناس عبر بوّابة الإقناع والتأثير في المتلقّي ، واعتماد استراتيجيّات توجّه عقل المخاطب وروحه وضميره بعيداً عن العنف والإكراه والمغالطة .

وكانت خطّة البحث مقسّمة علىٰ مقدّمة ومبحثين : الأوّل : الإطار

النظري اشتغل على فقرات عدّة: الأولى: ترجمة محمّد بن النعمان الأحول، والثانية: مهاد نظري للتوجيه الحجاجي، والمبحث الثاني: الإطار التطبيقي وفيه خطوات اجرائية لمنهج الحجاج في نصّ الوصية ،وتمثّل بالموجّهات اليقينية، ثمّ ختم البحث بخاتمة عرضت أهمّ نتائج البحث، وأخيراً ثبت المصادر والمراجع.

المقدّمة:

الحمد لله الذي منَّ علينا بنبيّه الصادق الأمين محمّد صلى الله عليه وآله، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وأشرف بريّته أئمّة الهدى وسفن النجاة آل البيت عليهم السلام المنتجبين، وبعد:

فتاريخ الإنسانية والأمم يحفل بأحداث وتطوّرات متتابعة، ولو تصفّحناه وبحثنا في ثناياه عن القدوات الإنسانية والعظماء لجذبتنا إليه شخصيّات سجّل التاريخ مسيرتها بأحرف من الأنوار الإلهية، والإشراقات الربّانية، ومن تلك الشخصيّات أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين خصّهم الله سبحانه وتعالى بمعرفة متميّزة، لذلك فالتقويم البشري لمعرفتهم لا يعتدّ به بقدر ما يجسّد حجّة على الآخرين ممّن يحيا بمعزل عن مبادئهم عليهم السلام.

ومن سليل تلك العترة الطاهرة عليهم السلام، الإمام الصادق عليه السلام، مدرسة علم الأوّلين والآخرين، وهذا اللقب كافٍ في التعريف بمدى المعرفة التي أفادها الناس منه عليه السلام، حتّى أنّ جميع الفئات الثقافية أقرّت بسعة المعرفة التي توافر

عليها، حتّىٰ أنّ المؤرّخين يذكرون أنّ أي شخصية عندما تناظر الإمام الصادق عليه السلام، إنّما تبدو كأنّها صبيّ أمام المعلّم.

وفي ضوء ما تقدّم، كانت أقلام العلماء قد سطّرت المؤلّفات الكثيرة التي دارت في مختلف العلوم التي اشتغل عليها الإمام الصادق عليه السلام، لذلك أجد نفسي صغيراً لأكتب عن جانب من جوانب حياته المضيئة، لكن حبّي لهذه الشخصية العظيمة وإيماني الكبير بأفعاله ومواقفه وعلمه شجّعني علىٰ تعقّب طريق من الطرق التي سلكها في استشرافه نحو الكمال الإنساني، وذلك في رحاب أدبه الواسع من خلال وصيّته عليه السلام لأبي جعفر بن النعمان الأحول التي حاولنا سبر أغوارها بتحقيق عنصر ارتكزت عليه، ألا وهو التوجيه الحجاجي، الذي قرّر قضايا عبادية وأخلاقية ونفسية، فكان حضوره في الوصيّة يشكّل تمظهراً فكريّاً وإقناعيّاً بارزاً، فكان مقاربة إلىٰ ما يؤول إليه الخطاب الحجاجي من أنماط تبليغية إبداعية مبوّبة علىٰ نسق ايدولوجي قارّ في غائيّة معرفية متمركزة في مطلق علمه عليه السلام.

وكانت خطّة البحث مقسّمة علىٰ مقدّمة ومبحثين: الأوّل: الإطار النظري وقد اشتغل علىٰ فقرات عدّة: الأولىٰ: ترجمة محمّد بن النعمان الأحول، والثانية: مهاد نظري للتّوجيه الحجاجي، والمبحث الثاني: الإطار التطبيقي وفيه خطوات إجرائية لمنهج الحجاج في نصّ الوصية ،وتمثّل بالموجّهات اليقينية، ثمّ ختم البحث بخاتمة عرضت أهمّ نتائج البحث، وأخيراً ثبت المصادر والمراجع.

وختاماً: هذا ما وفّقنا الله إليه من الكتابة في هذه الأوراق البحثية، فإن أصبنا فيما سعينا إليه فهو منّة من منن الله علينا، وإن أخطأنا وزلّ قلمنا فحسبنا الضعف والهوان، إذ أنّ الكمال لله وحده يهب لمن يشاء من عباده ويقدر، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والعاقبة للمتّقين.

الإطار النظري:

أوّلاً: ترجمة أبي جعفر محمّد بن النعمان الأحول.

هو أبو جعفر الحارث بن محمّد بن النعمان البجلي أبو علي الكوفي، إمامي، ذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام[١] وقال النجاشي: «حارث بن أبي جعفر محمّد بن النعمان الأحول مولىٰ بجيلة، روىٰ عن أبي عبد الله عليه السلام، كتابه يرويه عدّة من أصحابنا»[٢] وفي **الفهرست** «الحارث بن الأحول له أصل»[٣]. وفي **لسان الميزان** «الحارث بن محمّد بن النعمان أبو محمّد بن أبي جعفر البجلي... روىٰ عن جعفر الصادق عليه السلام وزارة بن أيمن وبريد بن معاوية البجلي وغيرهم»[٤].

وفي **سير أعلام النبلاء** «ومن قدمائهم أبو جعفر محمّد بن النعمان الأحول، عراقي شيعي جلد... يعدّ من أصحاب جعفر بن محمّد، صنّف **كتاب الإمامة وكتاب الردّ علىٰ المعتزلة وكتاب طلحة وعائشة وكتاب المعرفة**

---

(١) ينظر: رجال الطوسي: ١٩٢ الرقم ٢٣٣.

(٢) الفهرست (رجال النجاشي): ١٤٠ الرقم ٣٦٣، ومنتهىٰ المقال ٢٠/ ٣١٩.

(٣) الفهرست: ١١٩ الرقم ٢٥٥، وينظر خلاصة الاقوال: ٥٥ الرقم ٩.

(٤) لسان الميزان ٢ / ١٥٩.

وكتاب في أيّام هارون الرشيد»[١] وله كتاب في الحديث[٢]. وكان صيرفيّاً في طاق المحامل بالكوفة، يرجع إليه في النقد فيخرج كما ينقد، كان ثقة متكلّماً حاذقاً كثير العلم حسن الخاطر حاضر الجواب[٣].

كان يلقّب عندنا بصاحب الطاق ومؤمن الطاق[٤] والمخالفون يقلبونه شيطان الطاق[٥]، وكان سبب هذه التسمية أنّه كان يتصرّف ويشهد الدنانير فلاحاه قوم في دينار جرّبوه وبهرجه هو، فأصاب وأخطأوا، وألزمهم الحجّة، فقال: أنا شيطان الطاق، يعني: طاق المحامل بالكوفة موضع دكّانه فلزمه هذا اللقب[٦].

ثانياً: التوجيه الحجاجي:

التوجيه الحجاجي من المصطلحات التي تتداخل عندها علوم معرفية متعدّدة، منها المنطق والنحو واللسان، ممّا أدىٰ هذا إلىٰ الاتساع والتشابك،

---

(١) سير اعلام النبلاء ١٠ / ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٢) ينظر: الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة ٦ / ٣١٩.

(٣) ينظر: الفهرست (ابن النديم) هامش ص ٢٢٤ وتحف العقول هامش ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٤) ينظر مثلا: جامع الرواة ١ / ١٧١، ونقد الرجال ١ / ٣٨١ الرقم ١٠٩٥ وتوضيح المقال في علم الرجال: ١٣٢، وأعيان الشيعة ٤ / ٣٧٤.

(٥) ينظر تفصيل ذلك في: تحف العقول هامش ص ٣٠٨.

(٦) ينظر: الفهرست (ابن النديم) هامش ص ٢٢٤ وتحف العقول هامش ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

بل والتعدّد في الموصلات المعرفية التي تعمل على محايثة هذا المصطلح إلى الأهمّية التي يشكّلها بوصفه يمثّل الآيدلوجية الوظيفية والإنجازية للغة، ويكون العصب الحسّي الناقل للإيعاز الإدراكي من القائل عبر المقول (المضمون الجملي) إلى المتلقّي[١].

إنّ الذي نصبوا إليه في هذه المقاربة لمصطلح التوجيه، هو التوجّه الذي تبنّاه اللسانيّون المحدّثون في فهم هذا المصطلح والعناية القصوى بتحليل ما يقوم به المتكلّم حينما يتكلّم، وقد أدّت دراسة القوّة الإنجازية لأفعال الكلام إلى دراسة المواجهات «علاقة الموجّهات بأفعال اللغة»[٢]، فقد عرفه مارتن بقوله: «التوجيه حكم على حكم أي إنّه حكم من الدرجة الثانية... وهو ما من شأنه أن يجعل مجال التوجيه مجالاً شاسعاً، فقولنا: (هو يعدو سريعاً) هو قول موجّه، ذلك أنّ قولنا (يعدو) حكم هو نفسه محكوم عليه بحكم آخر من قولنا: (سريعاً)، هذا يعني أنّ كلّ قول عادي هو قول موجّه»[٣].

يدخل فعل التوجيه ضمن واحد من أنواع الأفعال اللغوية التي صاغها سورل وقد سمّاها بالأفعال التوجيهية وتتّحد بأنّها «كلّ المحاولات الخطابية التي يقوم بها المرسل بدرجات مختلفة للتأثير في المرسل إليه ليقوم بعمل

---

(١) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ: ١٢٨.

(٢) ينظر: الملفوظية: ٤٥.

(٣) نقلا عن الحجاج في القران الكريم: ٣١٥.

معيّن في المستقبل»[١] وبذلك تتعدّد أفعال الإنجاز و التوجيه .

ومنها الأوامر والطلبات والاقتراحات[٢] ولكي يحقّق المرسل فعل التوجيه في الخطاب فإنّه «يستعين بأدوات أُخرىٰ وآليّات مختلفة منها أساليب الأمر والنهي والتحذير والإغراء والروابط والعوامل الحجاجية ، وذلك بالاستناد إلىٰ دور السياق والمقام»[٣] فالأفعال التوجيهية تعبّر عن توجّه المرسل إلىٰ أن ينفّذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل ، كما أنّها تعبّر عن رغبة المرسل أو أمنيّته بأن يكون خطابه أو بأن تؤخذ إرادته التي انطوىٰ عليها خطابه علىٰ أنّها هي السبب الرئيس أو الدافع الحقيقي في الفعل الذي سوف يأتي به المرسل إليه مستقبلاً[٤] . إنّ الموجّهات اللغوية محمّلة بطاقة حجاجية يتمّ توظيفها من الباثّ فتكون قادرة علىٰ توجيه الملفوظ تبعاً لقصديّة الكلام ومتطلّبات التلقّي والتوصيل ، إذ يقف المخاطب بخطابه عند عتبات إشارية ـ موجّهات ـ يستدعيها ويوظّفها بما ينسجم وتوجيه القول من جهة ، وتوجيه المتلقّي إلىٰ عمل ما من جهة أُخرىٰ[٥] .

ومن هنا نجد طبيعة الخطاب التي حفلت بها وصية الإمام الصادق عليه السلام لأبي جعفر محمّد بن النعمان الأحول قد تميّزت ببناء استراتيجية توجيهية

---

(١) Les Universe decroyanceeT la theories semantique in Etudes linquistiques:41.

(٢) ينظر : رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ : ١٢٨ .

(٣) المرجع نفسه : ١٢٨ .

(٤) ينظر : استراتيجية الخطاب : ٣٣٧ .

(٥) ينظر : رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ : ١٢٩ .

تتّكىء على هدف التوجيه وبما يتلاءم وطبيعتها المقامية والسياقية، إذ من خلالها يقوم المرسل بتوجيه المرسل إليه عبر اللغة وبها سعياً منه إلى توجيه المتلقّي نحو فعل مستقبلي معيّن، لذلك نجد وصيّة الإمام الصادق عليه السلام قد تشكّلت فيها مجموعة من الموجّهات الحجاجية التي تبغي الإقناع والتأثير ومن ثمّ توجيه المتلقّي نحو عمل ما أو تركه عن طريق (الإقناع والإذعان).

وقد وردت في الوصية مجموعة من الموجّهات اليقينية معتمدين في إبرازها على مجموعة من العوامل والوحدات اللغوية التي تقوم بوظائف حجاجية، والتي يعرّفها موشلر وروبول بأنّها: «الآثار الظاهرة في الخطاب»[١] فهي بارزة للعيان في بنية الملفوظ ولها قيمة توجيهية في هذا الملفوظ باتّجاه النتيجة وتقويتها، إذ أنّها لا تربط بين متغيّرات حجاجية، أي بين حجّة ونتيجة او بين مجموعة حجج كما يحصل مع الروابط الحجاجية، ولكنّها تقوم بحصر الإمكانات الحجاجية وتقييدها، أي إنّ العامل الحجاجي يعمل على إظهار (الموضع) في الملفوظ، وبدوره يعمل هذا الموضع علّة تحديد الاتّجاه التأويلي الصحيح للوصول إلى النتيجة النهائية التي يكون لها الدور الرئيس في إحداث التوجيه[٢].

ومن خلال ما سبق تبيّن أنّ التوجيه الحجاجي تتجسّد وظيفته من خلال العوامل الحجاجية على حمل المخاطب بها على الاقتناع وترك الشكّ

---

(١) العامل الحجاجي والموضع ضمن كتاب الحجاج مفهومة ومجالاته: ٣٠٨.

(٢) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ: ١٢٩ ـ ١٣٠.

والتردّد والإنكار، فضلاً عن إمكانيّتها في حصر الإمكانيّات التأويلية والقصدية الدلالية، كذلك تضييق الفجوة بين المتكلّم والمتلقّي وتجنّب الجدل بينهما.

الموجّهات اليقينية:

يرىٰ عبد الله صولة: أنّ الموجّهات اليقينيّة تعدّ الضمان لحقيقة الكلام ولإمكان أن يكون هذا الكلام مقنعاً علىٰ الرغم من اصطباغه بالذاتية، ذلك أنّ الإقناع يحصل لدىٰ المتلقّي بمجرّد أنّ القضية المعروضة عليه جاءت موجّهه توجيه إثبات[1]. وقد تجسّدت الموجّهات اليقينية في مجموعة من العوامل الحجاجية التي تعطي تطمينات إلىٰ المتلقّي بإمكانية تصديق بنية الملفوظ الذي وردت فيه.

لقد تضمّنت وصيّة الإمام الصادق عليه السلام العديد من الموجّهات اليقينية الإثباتية والتي منها:

أوّلا: القسم:

يعدّ القسم نوعاً من أنواع الفعل الكلامي الذي يوجّه القول توجيهاً يقينيّاً إثباتيّاً يلجأ إليه المتكلّم لتوكيد كلامه، فهو إذ يثبت القول ويوجّهه يجعل في الوقت نفسه الحجّة علىٰ المخاطب ويلزمه بها، وفي ذلك يقول القشيري: «إنّ الله ذكر القسم لكمال الحجّة وتأكيدها، وذلك أنّ الحكم يفصل

(١) ينظر: الحجاج في القران الكريم: ٣٢٠.

باثنين ، أمّا بالشهادة وأمّا بالقسم فذكر تعالىٰ في كتابه النوعين حتّىٰ لا يبقىٰ لهم حجّة»[١] .

وفي ضوء ذلك يجب القول : أنّ كلّ مقسم به يكون حجّة علىٰ صحّة الدعوىٰ ، وإنّما تكون الحجّة الناتجة عن صحّة الدعوىٰ متوقّفة علىٰ اعتبار المخاطب الذي أتىٰ من أجله القسم[٢] ، لهذا ذكر القشيري في شروط القسم : «ولا يكون القسم إلّا باسم معظّم»[٣] أي كون المقسم به يقع ضمن الحواضن المعرفية الثقافية التي يتوافق معها المتكلّم والمتلقّي والتي تمثّل حيثيّات إيمانية وعرفية مسلّم بها . إنّ الدلالة الكلّية للقسم لا تتّجه نحو القسم بذاته فحسب ، وإنّما الغاية منها تحقيق المغزىٰ التوصيلي الذي يطمح إلىٰ دفع المتلقّي إلىٰ الوثوق بكلام الباثّ ، ومن ثمّ يكون وجوده ضرورياً لإنتاج الإقناع أو لاحتمال حصوله علىٰ الأقلّ[٤] ؛ برز أسلوب القسم في وصية الإمام الصادق عليه السلام عبر مجموعة من العوامل الحجاجية ـ مثلّث المقسم به ـ وهي توجّه الملفوظ وجهة حجاجية ، وحمل المتلقّي علىٰ التصديق والاقتناع بها في حالتي النفي والإثبات للدعوىٰ ، وبذلك انقسمت التراكيب اللغوية المتضمّنة لأسلوب القسم في الوصية من الناحية الحجاجية علىٰ قسمين :

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ١٣٣ .

(٢) ينظر : رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة : ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن ٢ / ٤٥٠ .

(٤) ينظر : رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة : ١٣١ .

أ ـ العامل الحجاجي :

دلّ العامل الحجاجي علىٰ الشيء المقسم به ، ومن مميّزاته أنّه يؤثّر في التركيب حتّىٰ ينهض في الخطاب بوظيفة الحجاج ، كما يعمل علىٰ توجيه الملفوظ وإثباته وجعله ممّا يحمل علىٰ أنّه واقع لا محالة ، ذلك أنّ للمقسم به قوّة في تحقيق قيمة الكلام التأثيرية ، أنّه يمثّل المعلوم القديم الذي لا يمكن أن يقبل[١] ، ويمكن أن نرىٰ العامل الحجاجي من خلال وروده في وصية الإمام الصادق عليه السلام وكما يأتي :

ـ والله إنّي أعلم بشراركم من البيطار بالدواب[٢] .

ـ والله لو قدّم أحدكم ملء الأرض ذهباً علىٰ الله . . .[٣] .

ـ والله مالكم سرّ إلّا وعدوّكم أعلم به منكم[٤] .

ـ فلا تعجلوا فو الله لقد قرب هذا الأمر[٥] .

ـ فو الله لو أنّ أهل السموات والأرض اجتمعوا علىٰ أن يضلّوا عبداً . . .[٦] .

وقد اكتسبت هذه العوامل ـ المقسم به ـ حجاجيّتها في توجيه الإثبات

---

(١) ينظر : الحجاج في القرآن الكريم : ٣٢٢ .

(٢) ينظر : تحف العقول : ٣٠٨ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠٩ .

(٤) ينظر : تحف العقول : ٣١٠ .

(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٣١٠ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه : ٣١٢ .

من حصول إجماع ضمني في قبولها ورسوخها بحيث يمثّل حلقة وصل بين طرفي الخطاب ، وهذا الإجماع نتاج العظمة التي يحملها المقسم بـه ـ الله ـ والتي تبرز من خلال هـذه العـوامـل الحـجاجية التـي بـدورها تـحيل عـلىٰ آيـدولوجيّات مـعجمية نـاتجة عـن الدلالات المـحايثة فـي المـقسم بـه ، فالحمولات الدلالية والاقتضائية للعامل الحجاجي قي القسـم يـقوم بـوظيفة حجاجية في الحواضن والمنظومات العقدية للمخاطب ـ القسم بالله ـ لذلك يتمّ طلبه في الخطاب سعياً من الباث لحصول الاستقرار والاطمئنان الروحي وعدم التردّد من طرف المقابل في قبول القضية ـ الدعوىٰ ـ من حيث تحقيق الصدق والإثبات اليقيني ممّا يجعل المتلقّي يقتنع بمضمون جواب القسـم ، فالدور الحجاجي الذي يمارسه القسم يمثّل في توجيه المقول والقول معاً في ثنائية نسقية ، أي يعمل علىٰ توجيه فحوىٰ الكلام وإبراز مدىٰ مصداق حضور الذات القائلة فـي كـلامها المـنطوق ، وانـفتاحها عـلىٰ أبـجديّات المـتلقّين ، وأبجديّات إيمانهم ، اذ ينطلق من مكوّناتها ويعتمد عليها ليقيم الحجّة علىٰ صحّة القضايا التي يعرضها عليهم ويوجّهها توجيهاً إقناعيّاً مخصوصاً وتأثيراً ملموساً .

وقد اتّضحت أدوات القسم المحدّدة لجملة القسم ـ العامل الحجاجي ـ في وصيّة الإمام الصادق عليه السلام من خلال حروف القسم (الواو) و (الفاء) .

ب ـ الدعوىٰ :

هي المقسم عليه ـ جواب القسم ـ، وتمثّل البـؤرة التـي جـاء القسـم

ليسلّط الضوء عليها بوصفها المعلومة الجديدة التي من شأنها أن ترد، كما أنّها القضية التي يتمّ حولها الجدل والاختلاف فتحاول أن تستجمع قواها، وتفرض نفسها أمام الرياح العاتية عبر تحصينها داخل الأسوار، ثمّ درء معاول التفنيد عنها بواسطة القسم، فهي كالعارية[١]، وقد تشكّلت الدعوى ـ جواب القسم ـ في عدّة أنماط لغوية تركيبية:

١ ـ النمط الخبري المثبت:

يتّضح جواب القسم في صيغة نمط خبري مثبت في المثال الآتي:

ـ فلا تعجلوا فو الله لقد قرب هذا الأمر[٢].

٢ ـ النمط الخبري المؤكّد:

يمثّل جواب القسم النمط الخبري المؤكّد في الملفوظ الآتي:

ـ والله إنّي لأعلم بشراركم من البيطار بالدواب[٣].

٣ ـ النمط الخبري المنفي:

يمثّل جواب القسم النمط الخبري المنفي في المثال الآتي:

ـ والله مالكم سرّاً إلّا وعدوّكم أعلم به منكم[٤].

٤ ـ النمط الطلبي:

يمثّل جواب القسم النمط الطلبي في الملفوظات الآتية:

---

(١) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ: ١٣٢.

(٢) ينظر: تحف العقول: ٣١٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٠.

ـ فـو الله لو أنّ أهـل السـموات والأرض اجـتمعوا عـلىٰ أن يـضلّوا عبداً . . .[١]

ـ والله لو قدّم أحدكم ملء الأرض ذهباً علىٰ الله . . . .[٢] .

الطاقة الحجاجية للقسم :

تنفتح تراكيب الأنماط للدعوىٰ علىٰ آفاق دلالية وتـداوليـة واسـعة لا تقف عند حدود الطاقة التعبيرية لدلالة النمط ، إذ تبيّن الملفوظات المـؤكّدة بالقسم محاولة المتكلّم لإقناع الخصم بوسم خطابه بأعلىٰ درجات التأكـيد ، ومن ثمّ يصبح للملفوظ درجة حجاجية عـالية[٣] ، فأسـاس الطـاقة المـولّدة للإقناع هو ماينهض له المقسم به من دور مهمّ في توجيه الملفوظات وإثباتها وجعلها ممّا يحمل علىٰ أنّها واقعة لا محالة[٤] ، وبعبارة أخرىٰ أنّ قوّة المقسم به «تعمل علىٰ تحقيق قيمة الكلام التأثيرية سواء أكانت هذه القيمة متحقّقة أم كانت متصوّرة»[٥] .

كما تكشف الملفوظات المؤكّدة بالقسم عن صورتين متعارضتين تنفتح

---

(١) ينظر : تحف العقول : ٣١٢ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠٩ .

(٣) ينظر : الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قـتيبة ـ دراسـة تداولية ـ (اطروحة دكتوراه) : ٢٥١ .

(٤) ينظر : رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ : ١٣٤ .

(٥) المرجع نفسه : ١٣٤ .

في وصية الإمام الصادق عليه السلام اذ تزيد درجة إثبات الدعوىٰ بارتفاع درجة الإنكار، وتطابق الجمل بأنماط مقامية مختلفة تتمايز بموقف المخاطب من فحوىٰ القضية انطلاقاً من مجرّد التردّد في قبول هذه الفحوىٰ إلىٰ الإنكار التامّ، فكلّما ازداد الإنكار احتيج إلىٰ مضاعفة التوكيد[١]، وتظهر هذه الدعوىٰ في إشكال بنيوية متباينة، وذلك حتّىٰ تكون منسجمة ومتطابقة مقاميّاً، وكما يأتي:

١ ـ الطبقة المقامية الأولىٰ:

وهي الطبقة التي يكون فيها المخاطب جاهلاً بالمعلومة التي يقصد اعطاءه إيّاها أو يعدّ المتكلّم أن المخاطب يحملها، أي المعلومة لا تدخل في القاسم الإخباري المشترك بين المتكلّم والمخاطب[٢]، وتتمثّل في الملفوظات الآتية:

ـ والله إنّي لأعلم بشراركم من البيطار بالدوابّ[٣].

ـ والله لو قدّم أحدكم ملء الأرض ذهباً علىٰ الله ....[٤].

فقد مثّلت الدعوىٰ ـ جواب القسم ـ في المثالين المعلومة التي يجهلها المخاطب بالنسبة للمتكلّم لذا يلجأ الأخير إلىٰ إثباتها والسعي للحصول علىٰ

---

(١) ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيّات الوظيفية، البنية التحتية أو التمثيل التداولي نموذجاً: ١٨٨.

(٢) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٢٩.

(٣) ينظر: تحف العقول: ٣٠٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسة: ٣٠٩.

اليقين واستقرار ثبوتيّتها في ذهن المتلقّي ، وكأنّ المتكلّم يدفع بالمخاطب إلىٰ الوثوق بكلامه حين يقدّم له معلومة يجهلها فيعمل (المتكلّم) علىٰ تأكيدها بأعلىٰ درجات الإثبات[١] ، حيث يمثّل المثال : (والله إنّي لأعلم بشراركم من البيطار بالدواب) الحجّة التي قدّمها الإمام الصادقعليه السلام إلىٰ محمّد بن النعمان الأحول ، فالإمامعليه السلام يؤكّد بأنّه يمتلك المعرفة (الغيبية) مالا يقدر أن يدرك كنهها غيره من الذي يمتلك الأرضية الخصبة للمعرفة (الواقعية) ، فهو يفوق بالقياس عن الطبيب البيطري العالم المتصرّف بفنون الطبّ الخاصّ بالدواب ، فالملفوظ هنا كناية عن المعرفة الواسعة ، وقد أتىٰ الإمامعليه السلام بالقسم لإثبات هذه الدعوىٰ ، ثمّ عزّز القسم بالعامل الحجاجي (إنّ + اللام) المؤكّدتان لمضمون الخبر في الجملة ، وزيادة توثيقه .

وهكذا الحال في المثال الآخر ، وفيها يلجأ إلىٰ مجموعة من المؤكّدات ، وهنا يقع القسم كونه يحمل قوّة إنجازية ليس فقط بدلالته البنيوية الخاصّة وقوّته الداخلية ، ـ أي إحالته المرجعية المقدّسة ـ بل تنفتح دلالته علىٰ جهة صدوره ، ومتانة العلاقة بين القسم والمقسوم عليه ـ الدعوىٰ ـ ، أي يصبح القسم مرآة عاكسة لطبيعة المخاطب الذي يمتلك المقدرة بكلّ حيثيّاتها .

٢ ـ الطبقة المقامية الثانية :

هي الطبقة المقامية التي يتوافر فيها المخاطب علىٰ المعلومة التي يعدّها

---

(١) ينظر : رسائل الإمام عليعليه السلام في نهج البلاغة ـ دراسة حجاجية ـ : ١٣٥ .

المتكلّم معلومة غير واردة، ويعمل المتكلّم على تصحيحها للمخاطب[١].

وتتمثّل في النماذج الآتية:

ـ والله مالكم سرّاً إلّا وعدوّكم أعلم به منكم[٢].

ـ فوالله لو أن أهل السموات والأرض اجتمعوا على أن يضلّوا عبداً...[٣]

ـ فلا تعجلوا فوالله لقد قرب هذا الأمر[٤].

إنّ النماذج السابقة هي جواب القسم على القضايا التي يعرضها المتكلّم، وهي أصلاً أجوبة لأسئلة مقدّرة ومفترضة يتمّ الردّ عليها بطريقة لا يمكن ردّها أو إنكارها.

ثانياً: القصر:

القصر في اللغة يعني: الحبس، وفي الاصطلاح: «تخصيص أمر بأمر بأسلوب معيّن أي حبسه عليه وجعله ملازماً له»[٥] وهو أداة توكيد وتخصيص، وكلّما قويت الحاجة اليهما كان القصر أبلغ[٦]، ودلالة التوكيد في

---

(١) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) ينظر: تحف العقول: ٣١٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ٣١٠.

(٥) رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٣٩.

(٦) ينظر: البلاغة العربية ـ علم المعاني ـ: ١٦١.

القصر أن يكون بنفي الغير وإثبات الحكم للموضوع، ويكون صريحاً بحرف (النفي) و (إلّا) وضمناً بـ: (إنّما)، وأمر الاختصاص، فهو اختصاص أحد العنصرين دون غيره بالآخر، ومن ثمّ تأكيد النسبة بينه وبين الآخر[١].

إنّ الأقوال التي تتضمّن هذه العوامل الحجاجية (أدوات القصر) هي في حقيقتها قائمة على ثنائيّة النفي والإثبات من حيث السلوك الحجاجي والوجهة الحجاجية، كما أنّها تبيّن الاختلاف بين الدلالة الإخبارية والدلالة الحجاجية، فمعنى هذه الأدوات الإخباري لا يضمحلّ، لكن الذي يحصل هو التعديل في الوظيفة الحجاجية للقول، أي الإمكانات الحجاجية التي يتيحها الملفوظ، إذ أنّ من وظائف هذا القصر هو تقليص الاستنتاجات التأويلية وتحديد المسار الصحيح في خريطة القول والذي ينبغي أن يسير فيه الخطاب، وبعبارة أكثر دقّة وضع حدّ لتعدّد الاحتمالات في شأن المفاهيم الناجمة عن قول ما[٢].

ومن مدارسة مدوّنة وصيّة الإمام الصادق عليه السلام نلحظ تحقيق أسلوب القصر عبر مجموعة من العوامل الحجاجية التي عملت على تعديل القيمة الحجاجية للأقوال (قيمة الإثبات / قيمة التخصيص)، فضلاً عن قدرتها على توجيه المخاطب وإقناعه بضرورة إنجاز شيء ما على وفق موجّهات القول، ومن هذه العوامل (ما... إلّا، لا... إلّا، إنّما).

---

(١) ينظر: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنصّ القرآني ٢ / ١٣٦.

(٢) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٤٠.

١ ـ القيمة الحجاجية للعامل (لا .... إلّا) و (ما ... إلّا):

يقوم هذان العاملان بتوجيه القول بالنفي والإثبات بناءً على مقتضى الإنكار والشكّ والتوهّم الحاصل من المخاطب، الأمر الذي يجعل المتكلّم يلجأ إلى هذه الأدوات لما لها من إمكانية حجاجية في توجيه المخاطب وإقناعه، وكما في النماذج الآتية:

ـ لا يقرأون القرآن إلّا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلّا دبراً[١].

ـ فلا يسمع معروفاً إلّا أنكره ولا منكراً إلّا أنكره[٢].

ـ ولا ينزله إلّا بقدر ولا يعطيه إلّا خير الخلق[٣].

ـ والله ما لكم سرّاً إلّا وعدوّكم أعلم به منكم[٤].

ـ ولا تطلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو اطّلع عليه عدوّك لم يضرّك[٥].

ففي هذه النماذج نجد الإمام الصادق عليه السلام قد ألزم محمّد بن النعمان الأصول بقاعدة التقييد وحضر مسار الجائز عنده وقيّده بواسطة العامل الحجاجي (لا ... إلّا) و (ما ... إلّا) اللذين عملا على وظيفتين حجاجيّتين هما:

---

(١) ينظر: تحف العقول: ٣٠٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣١١.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٠.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٢.

التصريح بالنفي الواضح من الجملة الأولىٰ وتعيينه، وإقصاء مفاهيم أُخرىٰ قد تخطر في ذهن المتلقّي، إذ أنّ وجود النفي دون القصر يسبغ علىٰ النصّ تعدّد التأويلات أو الإمكانات الاستنتاجية المحتملة، والثانية: هي تأكيد المفهوم المقصور عليه، إذ بواسطته تلغىٰ المفاهيم والتأويلات الأخرىٰ التي قد يتصوّرها المتلقّي والتي تعمل علىٰ الإخلال بالنظام الدلالي الذي يدخل في بوتقة النظام العقدي للإسلام، فوجود القصر في هذه الأداة حدّد المقصود ووجّه ذهن المتلقّي إلىٰ قبوله من دون سائر المقاصد، كما أنّ الإعلان بالمقصور عليه من شأنه أن يسدّ الأبواب أمام الغير، فالوظيفة للجملة الثانية في علاقتها بالجملة الأُولىٰ هي علاقة التوكيد والبيان والتفسير.

٢ ـ القيمة الحجاجية للعامل الحجاجي (إنّما):

ذكر الجرجاني إنّ (إنّما) يؤتىٰ بها كخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحّته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به[١]، كما أنّها تأتي «إثباتاً لما يذكر وتوكيداً له، ولإيضاح له ما تقدّم، إنّك تقول للرجل: (إنّما هو أخوك، وإنّما هو صاحبك القديم) لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع بصحّته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به، إلّا أنّك تريد تنبيه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب»[٢] وهذا الكلام واضح من الجرجاني علىٰ أنّ العامل الحجاجي (إنّما) قد اشتغل علىٰ تحديد (الموضع) الذي هو مجموعة مبادئ مشتركة بين

---

(١) ينظر: دلائل الاعجاز: ٣٢٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢٧.

الناس وإبرازه، كما أنّه حدّد المسلك التأويلي الذي ينبغي للمتلقّي التزامه للوصول إلىٰ النتيجة، فالمخاطب لا يجهل (الموضع)، بل يقرّ به، لأنّه فكرة عامّة مشتركة، وبعد قدح العامل تقع عملية التوجيه الحجاجي وتقويته باتّجاه النتيجة، وهو ما عبّر عنه الجرجاني بـ: (التنبيه) أي التوجيه في معنىٰ من معانيه[١].

وتمثّل النماذج التي يسوقها الإمام الصادق عليه السلام بنية قصرية موغلة في الحجاج، ومحقّقة قوىٰ إنجازية تدفع بالمخاطب نحو الاقتناع أو الدحض.

ـ إنّما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء[٢]

ـ إنّما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا[٣]

فالوجهة الحجاجية للمثالين المذكورين تروم تغذية المتلقّي للدخول في الأجواء العقدية التي يقدّمها الإمام الصادق عليه السلام، ويحصر قاعدة الاستنتاجات الضمنية التي يمكن أن يبثّها المتلقّي، وذلك عبر ثيمة لغوية (إنّما) والتي تعبّر عن غاية المتكلّم، وتأكيد الحقيقة وإقرارها في نفس المتلقّي من أجل تقوية التوجيه الحجاجي نحو النتيجة.

الخاتمة:

كان من منن الله علينا أن يسّر لنا إنجاز هذا البحث، والنظر في الحجاج

---

(١) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٤٣.

(٢) ينظر: تحف العقول: ٣٠٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٩.

بوصفه منهجاً مؤطّراً لتحليل الخطاب عبر بنيته وأساليبه، وبعد أن انتهينا من الاشتغال في الخطوات الإجرائية لهذا المنهج في مدوّنة تراثية هي: وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لأبي جعفر محمّد بن النعمان الأحول، لابدّ لنا أن نلملم شتات بحثنا، ونعرضها بشيء من التكثيف بما يأتي:

ـ اعتمد المنجز النصّي في خطابه على الحجاج اللغوي بوصفه ظاهرة لغوية نجدها في كلّ قول، وفي كلّ خطاب بحسب ديكرو.

ـ كشفت لنا المدوّنة عن بعض الموجّهات اللغوية التي تقوم بوظيفة حجاجية سمحت بتوجيه الملفوظ بحسب قصدية المتكلّم، ومناسبات التلقّي، ومن ثمّ توجيه المتلقّي نحو القيام بفعل ما أو تركه (الإقناع أو الإذعان).

ـ لقد اندرجت هذه الموجّهات اللسانية ضمن الموجّهات اليقينية، فكان الهدف من حضور الموجّهات اليقينية في المدوّنة هو إثبات الأمور المنكرة، وحمل المخاطب على الاقتناع بها وترك الشكّ بها، وكلما قويت درجة الإنكار ضاعف المتكلّم عوامل التوكيد.

ـ عدّ القسم أساس الأفعال الكلامية ومن المؤكّدات التي تتحقّق من خلال مجموعة من العوامل الحجاجية والتي حصل إجماع ضمني على حجّيتها وقوّتها وتأثيرها.

ـ وظّف الإمام الصادق عليه السلام أسلوب القصر بصيغته المعروفة بوصفه من الأساليب اللغوية الحجاجية التي توجّه القول توجيه توكيد إثبات.

المصادر

١ ـ **الإتقان في علوم القران** : السيوطي (أبو الفضل جلال الدين) تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م .

٢ ـ **استراتيجيّات الخطاب ـ مقاربة تداولية ـ**: عبد الهادي بن ظافر الشهري ، ط١ ، دار الكتب الجديدة المتّحدة ، ٢٠٠٤م .

٣ ـ **أعيان الشيعة** : السيّد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ) ، تحقيق : حسن الأمين ، دار التعارف ، للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٤ ـ **البيان في روائع القران (دراسة لغوية وأسلوبية للنصّ القرآني)**: تمام حسّان ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٣م .

٥ ـ **تحف العقول عن آل الرسول**ﷺ : ابن شعبة الحرّاني ، (ت القرن الرابع الهجري) تصحيح وتعليق : علي أكبر غفّاري ، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ، ط٢ ، قم ١٤٠٤هـ.

٦ ـ **توضيح المقال في علم الرجال** : الملّا علي كني (ت ١٣٠٦هـ) تحقيق : محمّد حسين مولوي ، مطبعة سرور ، ط١ ، ١٤٢١هـ.

٧ ـ **جامع الرواة** : محمّد علي الأردبيلي ، مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي النجفي ، قم ١٤٠٣هـ.

٨ ـ **الحجاج في القران الكريم (من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية)**: عبدالله صولة ، ط٢ ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ٢٠٠٧م .

٩ ـ **الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة ـ دراسة تداولية ، (أطروحة دكتوراه)**: إبتسام بن خراف كلّية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر ٢٠١٠م

١٠ ـ **خلاصة الأقوال** : العلّامة الحلّي (ت ٧٢٦هـ) تحقيق : الشيخ جواد القيّومي ، ط١ ، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ، قم ١٤١٧هـ.

١١ ـ **دلائل الإعجاز** : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمّد شاكر ، ط١ ، دار المدني ، السعودية ١٩٩١م .

١٢ ـ **الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة** : آغا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ) ، دار الأضواء ، ط٣ ، بيروت ، لبنان ١٩٨٣م .

١٣ ـ **رجال الطوسي** : الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تحقيق : الشيخ جواد القيّومي ، ط١ ، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ، قم ١٤١٥هـ.

١٤ ـ **رجال النجاشي** : النجاشي (ت ٤٥٠هـ) مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ، ط٥ ، قم ١٤١٦هـ.

١٥ ـ **رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة (دراسة حجاجية)**: رائد مجيد جبّار الزبيدي ، (أطروحة دكتوراه) كلّية الآداب ، جامعة البصرة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م .

١٦ ـ **سير أعلام النبلاء** : الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي ، مؤسّسة الرسالة ، ط٩ ، بيروت ، لبنان ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

١٧ ـ **العامل الحجاجي والموضع ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته** : حافظ إسماعيل علوي وآخرون ، عالم الكتب الحديث ، ط١ ، أربد ، الأردن ٢٠١٠م .

١٨ ـ الفهرست : الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تحقيق : الشيخ جواد القيّومي ، مؤسّسة النشر الإسلامي ،ط١ ، قم ١٤١٧هـ.

١٩ ـ الفهرست : ابن النديم البغدادي (ت ٤٣٨هـ) تحقيق : رضا تجدد ، (د .ط)(د .م)(د .ت) .

٢٠ ـ قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ـ البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي : أحمد المتوكّل ، دار الأمان ، المغرب ١٩٩٥م .

٢١ ـ لسان الميزان : ابن حجر(ت ٨٥٢هـ) ، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م .

٢٢ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن : السيوطي ، تحقيق : علي محمّد البجاوي ، القاهرة ١٩٧٣م .

٢٣ ـ منتهىٰ المقال في أحوال الرجال : الشيخ محمّد بن إسماعيل المازندراني (ت ١٢١٦هـ) مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث ، مطبعة ستارة ، ط١ ، قم ١٤١٦هـ.

٢٤ ـ نقد الرجال : التفرشي (ت القرن الحادي عشر للهجرة) ، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، مطبعة ستارة ، ط١ ، قم (د .ت) .

٢٥ ـ الوظائف التداولية في اللغة العربية : أحمد المتوكّل ، دار الثقافة ، ط١ ، الدار البيضاء ١٩٨٥م .